د . احمد ماضي

هولباخ وفلسفة الحرية

ادى الفلاسفة الماديون والمستنيرون دورا كبيرا في اضعاف الايديولوجية الدينية ـ الاقطاعية والتمهيد النظري ـ المعرفي للثورة البرجوازية الفرنسية التي اندلعت عام ١٧٨٩ . لقد لعب ماديو القرن الثامن عشر الفرنسيون هولباخ (١٧٢٣ ـ ١٧٨٩) وديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) وهيلفسيوس (١٧١٥ ـ ١٧٧١) ولامتري (١٧٠٩ ـ ١٧٥١) المعبرون عن مصالح البرجوازية دورا هاما في الاعداد لهذه الثورة .

وينبغي الاشارة هنا الى ان ما يميز الماديين الفرنسيين عن امثالهم من الماديين الانكليز الذين عاشوا في القرن السابع عشر هو انهم مارسوا نشاطا علنيا وحازما في الوقت نفسه ضد المؤسسات الدينية ـ الاقطاعية السائدة آنذاك . والذي لا شك فيه هو ان الاوضاع السياسية ـ الاجتماعية والاحوال الاقتصادية ساعدت كثيرا في تصدي الفلاسفة الفرنسيين للنظام الاقطاعي ـ الديني . ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر شعت البرجوازية الفرنسية الصاعدة الى قلب نظام الحكم المطلق . والجدير بالذكر ان الكنيسة الكاثوليكية وقفت كحامية ومدافعة عن النظام الاقطاعي في اوروبا الغربية على وجه العموم وفي فرنسا على وجه التخصيص ، فقد شكلت عقبة لا يستهان بها في طريق وصول البرجوازية الناشئة الى الحكم . ذلك لان البرجوازية كانت تهدد مصالحها ، الامر الذي حتم عليها الحؤول دون تحقيق رغبات البرجوازية . فقد كانت من كبار ملاك الاراضي . أضف الى ذلك ان ايديولوجيتها هي السائدة . وهنا نرى ان الالتحام كان عضويا بين الكنيسة الكاثوليكية من جهة والنظام الاقطاعي من جهة اخرى . وفي ضوء هذه المعطيات لا يعقل ان يقف الفلاسفة الماديون ضد النظام الاقطاعي دون التعرض الى مصالح الكنيسة الكاثوليكية وايديولوجيتها الدينية التي تبرر وتدافع عن النظام الاقطاعي . فقد سخر رجال الكنيسة الكاثوليكية الدين المسيحي لخدمة اغراض الحكم المطلق والنظام الاقطاعي . والخلاصة ان موقف الفلاسفة الماديين من المؤسسات الدينية ـ الاقطاعية له ما يبرره ويدعمه دعما كافيا (١) .

ويكاد ينعقد الاجماع على ان بول هولباخ هو ابرز الماديين الفرنسيين . فقد كان احد جهابذة الفلسفة المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر . ومصداقا لهذا الحكم يقول هيغل : « لقد كان شخصية بارزة بين هؤلاء الفلاسفة كلهم » (٢) . ان صالونه اصبح مركزا لالتقاء المفكرين ومكانا للمساجلات والمناقشات التي مهدت للثورة الفرنسية العظمى وبهذا الصدد يؤكد على ان « صالونه كان ملتقى للشخصيات القائدة في ذاك الوقت » (٣) . ومن الذين ترددوا عليه : ديدرو ، هيلفسيوس ، دالمبير .. وقد جاء حين تردد فيه جان جاك روسو ايضا. والواقع ان صالونه اكتسب شهرة وذاع صيته ، الامر الذي دفع بعض الباحثة الى تسميته « مقهى اوروبا » . ومن الثابت ان المفكرين الذين ترددوا على صالونه كانوا يكنون اكبر الاحترام واعظم التقدير لشخص هولباخ . ولا شك في ان دوره في جذب وتوحيد المفكرين كان عظيما وبهذا الصدد يقول C . Avezac - Lavigne احد الباحثة ما يلي : « المآثرة العظمى للبارون هولباخ كانت توحيد الناس الذين من المحتمل بدونه لم يعرفوا بعضهم البعض على الاطلاق. فقد أضفى على اتحادهم هدفا محددا تماما ، واذ جمع كل القوى النشطة على هذا النحو فقد وجه جهودهم في اتجاه واحد . وقد أظهر في هذا الشأن الذي اعتبره مفيدا جدا الحماسة والمثابرة والاخلاص الذي لا مثيل له » (٤) .

والى جانب هذه المآثرة هناك دور آخر أداه هولباخ . فقد اسهم بكتابة اكثر من ٤٠٠ مقال للموسوعة . ومن الثابت ان اسهاماته لم تبدأ مع صدور المجلد الاول من الموسوعة عام ١٧٥١ وانما مع صدور المجلد الثاني سنة ١٧٥٢ الذي كتب بعض مقالاته باسم مستعار . ان معرفته العميقة للعلوم الطبيعية وأصله الالماني ساعدا كثيرا في معالجة المواضيع العلمية . وقد وصفه ديدرو بالشخص الذي « تدين له الى حد عظيم وهو متمكن جدا من علم المعادن والميتالورجيا والفيزياء » (٥) . وقد بلغ من علو كعبه واستبحاره في العلم والدور الذي أداه ان قيل

---

(١) أ. د. ماكاروف ، مقدمة في تاريخ الفلسفة ، موسكو ، دار « الفكر » للنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ ، ص ١٤٥ .

(٢) Hegel's Lectures on the History of philosophy volume three London - New york , 1968 ,P . 393,

(٣) Arch . B . D . Alexander , A short History of philosophy , Glasgow James Maclehose and Sons , 1907 , P . 292 .

(٤) اخذ الاقتباس من م.ت. كوتشاريان : بول هولباخ حول جوهر وأصل الدين . « من تاريخ الفلسفة » ، موسكو ، ١٩٥٧ ، ص ٨٥ .

(٥) A Critical History of Western philosophy Edited By D . J . O'connor , University of Exeter The Free Press of Glenoce Collier - Macmillan Limited , London , 1964 , Paige 276 ,

عنه في البلاغ الذي أعلنه الناشرون للقراء عن المجلد الثاني من الموسوعة ما يلي : « نحن مدينون كثيرا جدا لشخص واحد تعتبر الالمانية لغته الاصلية ، لشخص يعتبر متضلعا جدا في علم المعادن والميتالورجيا والفيزياء . وهذا الشخص قدم في هذه الفروع المختلفة كمية كبيرة جدا من المقالات التي تجدون جزءا ملحوظا منها في هذا المجلد الثاني... ان هذا العالم لم يكتف بالمأثرة الكبرى التي قدمها لنا فهو ، بالاضافة الى ذلك ، كتب لنا كثرة من المقالات في مواضيع اخرى . بيد انه طلب منا ان يبقى اسمه غير معلوم . هذا بالذات هو الذي عاقنا عن اعلام الرأي العام عن اسم هذا الفيلسوف ـ المواطن » (٦) . ولا سبيل الى الشك في ان هذا الفيلسوف ـ العالم ـ المواطن هو بول هولباخ . وبالاضافة الى كتابة المقالات العملية للموسوعة شارك هولباخ في تحرير أجزاء الموسوعة ذات العلاقة بالكيمياء وعلم العقاقير (الصيدلة) والفيزيولوجيا (علم وظائف الاعضاء) والطب . لقد كان غرضه هو تعريف الفرنسيين في شتى الميادين العلمية وبالاخص الكيمياء وعلم المعادن والجيولوجيا والميتالورجيا . ومن الجدير بالاشارة اليه ان هولباخ ترجم من الالمانية في الخمسينات من القرن الثامن عشر حوالي ثلاثة عشر كتابا .

مما تقدم يتبين لنا ان هولباخ صاحب شخصية مستقلة وذو اهداف محددة . وبناء على ذلك لا يمكن القول بأن هولباخ كرر واعاد ما قاله غيره من الفلاسفة على وجه العموم وديدرو على وجه التخصيص . بيد ان هذا الكلام لا يعني أبدا ان الفلاسفة والموسوعيين وبالتحديد ديدرو لم يؤثروا في تكوين فلسفته . « فالذي لا شك فيه ان ديدرو مارس تأثيرا كبيرا جدا في تطور وجهة نظر هولباخ المادية الى الكون » (٧) . ويلزمنا ان نعترف ان هذا التأثير لم يضف على فلسفة هولباخ طابعا ديدرويا . فقد حافظ هولباخ على شخصيته البارزة وصبغ فلسفته بصبغة تميزها عن غيرها بالرغم من المعالم المشتركة بين فلسفته وفلسفة الماديين الفرنسيين وبالاخص ديدرو . ويكفي للتدليل على ذلك وصف ديدرو لفلسفة هولباخ بأنها : « واضحة محددة وصريحة ... ان فلسفته تمثل كلا من قطعة واحدة » (٨) . وهذا معناه ان فلسفة هولباخ منسجمة العناصر ، خالية من التناقض ، مجردة من التلفيق . ولو كانت فلسفته محصلة للمؤثرات لما اتسمت بهذه الصفات .

ولد هولباخ في ديسمبر عام ١٧٢٣ في Edesheim بـ Palatinate

كان والده تاجرا صغيرا ، الامر الذي حال دون وصوله الى الثراء . غير ان هولباخ كان غنيا وحمل لقب « بارون » ، ومرد ذلك الى ان خاله الاكبر ـ فرنسيسك آدم دي هولباخ ـ كان صاحب ثروة طائلة وبارونا . وقد حصل على ذلك بعد انتقاله الى فرنسا . ولا ريب في أن الحظ كان حليف هولباخ ، فقد انتقلت الثروة واللقب اليه بعد وفاة خاله في فرنسا عام ١٧٥٣ م . ونستطيع ان نجزم ان الثروة التي ورثها سمحت له بفتح صالونه على مصراعيه وتكريس حياته كلها للنشاط العلمي ـ الفكري . أضف الى ذلك ان عاملا آخر على جانب كبير من الاهمية لعب دورا ملحوظا في حياته ألا وهو دراسته في جامعة ليدن التي تعتبر من أعرق جامعات اوروبا . وقد سادت فيها البروتستانتية التي سمحت بالتسامح ومارسته بحيث ان طلاب الجامعة كانوا يتلقون تعليما متعدد الجوانب . فقد درس فيها العلوم الطبيعية وبالاخص الكيمياء والجيولوجيا وعلم المعادن والفيزياء . وما هو جدير بالملاحظة ان الكنيسة لم تسمح بتدريس مثل هذه المواد في جامعات وكليات اوروبا الاخرى . ان هذه الفرصة سمحت له أن يعمق معارفه العلمية ويفيد منها في كتاباته للموسوعة وترجماته الى الفرنسية وبلورة فلسفته المادية . ومن الثابت ان هولباخ درس اللاتينية والاغريقية منذ وقت مبكر .

ان الثروة التي ورثها من خاله والمعارف التي حصل عليها في جامعة ليدن واللغات التي عرفها ـ كل ذلك أسهم في الدور التنويري الذي أداه . فهولباخ لم يكتف بتحويل صالونه مركزا للنشاط الايديولوجي والكتابة للموسوعة فحسب ، بل الف مجموعة من الكتب التي لا تزال تحتفظ بقيمتها حتى وقتنا الراهن . ونستطيع ان نقول ان كتاب « نظام الطبيعة » من أهم الكتب التي الفها هولباخ . ان ثقافته الموسوعية سمحت له بأن يعالج مواضيع شتى . فقد كتب في الانطولوجيا « نظرية الوجود » والابستيولوجيا « نظرية المعرفة » وعلمي الاخلاق والنفس ، وكتب الشيء الكثير عن الدين وألف في الفلسفة الاجتماعية والسياسية . والجدير بالذكر ان الحرية تعتبر من المقولات الاساسية التي عالجها هولباخ باسهاب وعمق . وسنرى فيما بعد ان فهمه للحرية لم يفقد دلالته في عصرنا الراهن بالرغم من ارتباط هذا الفهم بالعصر الذي عاش في ظله .

ينطلق هولباخ في معالجته للحرية من موضوعة على جانب كبير من الوضوح . فهو يرى أن الانسان عاجز عن أن يكون مستقلا كل الاستقلال. وبهذا الصدد يقول : « لا أحد على وجه البسيطة يدعي الاستقلال الكامل » (٩) . حتى ذاك الذي يعيش في عزلة غير قادر على الزعم انه مستقل . فهو مضطر لان يقوم باداء واجبات تفرضها عليه طبيعته والا أدى انتهاكها الى الحاق الاذى برفاهيته الشخصية . والى جانب ذلك فان المؤسسات الاجتماعية وقواعد الحياة الاجتماعية ، بغض النظر عن طبيعتها ، لا تمنح أي عضو من اعضاء المجتمع استقلالا مطلقا أو الحق في ان يفعل ما يحلو له . ان شعور الانسان بالاستقلال وهمي وذلك لانه « تابع دائما لوالديه ، لاسرته . وبكلمة انه خاضع للمجتمع الذي يوجد فيه منذ لحظة ولادته » (١٠) . ان الشخص الذي يود ان يكون مستقلا ملزم بأن يتحرر من « طبيعته الخاصة ، والتخلي عن وجوده بوصفه فردا انسانيا » (١١) . فهنالك قوانين طبيعية ضرورية تقود جميع الكائنات في الطبيعة وتوجه بالقدر نفسه البشر وتدعم النظام في المجتمع . ومن هنا لا يرى هولباخ ان الخروج على هذه القوانين لا يمكن الا ان يفضي الى الخطر أكان الانتهاك من قبل فرد عادي من افراد المجتمع او شخصية من شخصياته . « ان المجتمع بأسره سيعاقب من جراء عدم مراعاة قوانين الطبيعة بانعدام النظام والرذائل والجرائم التي ستخل بهدوئه » (١٢) .

وجملة القول ان الاستقلال ينافي كل التنافي مع الحرية الحقيقية لانه لا ينسجم مع نظام الاشياء .

ان حب الحرية هو اقوى الاهواء البشرية ، ومرد ذلك الى « سعي الانسان الى المحافظة على الذات والاستخدام غير المعيق للقدرات الشخصية من اجل جعل الحياة سعيدة » (١٣) . والجدير بالذكر ان الطبيعة قد رسخت في قلوب البشر هذا الشعور بالمحافظة على الذات ، فكل انسان يعتز بوجوده الخاص ويحرص عليه . وبالرغم من ان بعض المعوقات مثل العنف ، العادة ، الجهل ... قادر على أن يضعف ، مؤقتا ، تمسك الانسان ذاته ، الا انه ليس بمقدور اي شيء ان يقضي على هذا الشعور نهائيا وكليا ، ذلك لان « هدف جميع

---

(٦) أخذ هذا الاقتباس من كتاب « من تاريخ الفلسفة » المذكور آنفا ، ص ٨٥ .

(٧) « من تاريخ الفلسفة » ، ص ٨٣ .

(٨) أنظر المرجع (٥) ، ص ٢٧٦ .

(٩) بول هنري هولباخ : المؤلفات المختارة في مجلدين ، المجلد الثاني، موسكو ، ١٩٦٣ ، ص ٣٤٠ .

(١٠) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٢) المصدر السابق ، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ .

(١٣) نفس المرجع ، ص ٣٣٧ .

حركات القلب البشري يعتبر المحافظة على الذات والرفاهية » (١٤)

وبما أن الانسان يسعى الى المحافظة على ذاته ويهدف الى تحقيق رفاهيته فمن الضروري « أن يسترشد في أهوائه بالعقل » (١٥) . وما هو جدير بالملاحظة ان سبينوزا قال : « لقد أطلقت حرا على ذاك الذي يسترشد بالعقل وحده فقط » (١٦) . ان ما نلحظه هو ان هولباخ أعار العقل أهمية كبيرة . فتجنب الرذائل والانحرافات غير ممكن بدون الاسترشاد بالعقل . ذلك لان المحافظة على الذات لا تؤتي ثمارها المرجوة الا اذا استندت الى العقل « فعندما يكون حب الذات عقلانيا فانه يؤدي الى الفضيلة » (١٧) . اما اذا لم يعتمد حب النفس والسعي الى بلوغ السعادة على العقل ، فلا مناص من العواقب الوخيمة التي لا تصيب اولئك الذين لم يرتكبوا مثل هذا الخطأ وعندئذ « يفسد حب الذات رذيلة » (١٨) .

مما تقدم يتضح أن هولباخ يؤيد موضوعة « الانانية العقلانية » . ومن الثابت ان الفلاسفة الماديين الفرنسيين وعلى رأسهم هيلفسيوس كانوا من أنصار هذه الموضوعة . وفي القرن التاسع عشر تبناها وطورها كل من الفيلسوف الالماني ل. فيورباخ والفيلسوف الروسي تشيرنيشيفسكي .

وغني عن القول ان فحوى هذه الموضوعة يكمن في وضع حد للانانية لدى البشر وتقييدها بالعقل ومصلحة المجتمع . فحب النفس المبني على أساس عقلاني هو السلوك الفاضل . فاذا ما سادت العقلانية في المحافظة على الذات ، فان الشعب قادر على الاستحواذ على مفهوم سليم عن ماهية الحرية . وبهذا الصدد يؤكد هولباخ على هذه الفكرة بقوله : « فقط لدى الشعب الفاضل مفهوم عن حقوق الحرية الحقيقية » (١٩) . ذلك لان الحرية والفضيلة صنوان لا يفترقان . « ان الحرية مستحيلة حيث تنعدم الفضيلة » (٢٠) . أضف الى ذلك ان العقل هو الضابط للحرية . فهو الذي يوجهها الوجهة السليمة . انه البوصلة التي تهدي الانسان في حياته وبالتالي تحميه من الهلاك. ومصداقا لهذه الفكرة يقول هولباخ : « ان الحرية بلا عقل أداة مهلكة » (٢١) . وبناء على ذلك فالحرية الحقيقية هي الحرية العقلانية. انها تتناسب طرديا مع مدى سيطرة العقل عليها . « بمقدور افراد المجتمع ان يكونوا أحرارا بذاك القدر الذي تسمح به قوانين العقل » (٢٢) .

ان ربط الحرية بالعقل يقصد منه عدم الافراط في حب النفس على نحو يؤدي الى استهتار الفرد بالمصلحة الاجتماعية . فمهمة العقل تكمن في السيطرة والتحكم بالنزوات الفردية . انه الموجه نحو مصلحة وسعادة الفرد شريطة ألا تحقق هذه السعادة على حساب الحاق الضرر بالآخرين . يقول هولباخ : « ان العقل يحبذ الحرية . انه يكف عن استحسانها فقط في تلك الحالات التي تجلب الضرر ، أي عندما تستحيل الى نزوة ، الى عدم عدالة يحق للمجتمع ان يعاقبها » (٢٣) .

يظن البعض أن الحرية تعني ان يفعل الانسان ما يشاء وما يحلو له بغض النظر عن مدى تعارض هذه الافعال مع مصلحة المجتمع . بيد ان هذا الظن خاطىء وذلك لان الحرية تعني ألا نسعى الى ما فيه فائدتنا فقط ، بل وما يحقق خير المجتمع كذلك . « فمن أجل ان نمتلك الحق في فعل ما نشاء ، من الضروري أن نرغب فقط ما هو مفيد لنا وغير ضار للناس الآخرين » (٢٤) . كما يؤكد على ان « الحرية تتوقف عن ان تكون حقا من حقوق المواطن اذا كان يسيء استعمالها بأن يستعملها (على نحو) يعود بالضرر على زملائه المواطنين » (٢٥) . ان الفائدة الشخصية يجب ألا تتعارض مع المصلحة الاجتماعية. وبكلمات اخرى أن سعادة الفرد يجب أن لا تتحقق على حساب سعادة الغير . فالحرية ـ بتعريف هولباخ ـ هي « حق كل عضو من اعضاء المجتمع ان يتخذ كل ما لا يلحق الاذى بسعادة زملائه المواطنين من اجل سعادته الخاصة » (٢٦) . وفي موضع آخر يؤكد نفس الفكرة عندما يقول ان « الحرية هي امكانية استغلال كل الطرق التي تفضي بالانسان الى السعادة على ان لا تعيق سعادة الناس الآخرين » (٢٧) . والذي لا ريب فيه ان مثل هذا السلوك صعب المنال . فهو يتطلب من صاحبه ان يكون ـ على حد تعبير هولباخ ـ شريفا ، نظاميا ، اجتماعيا ، مشبعا بشعور عميق ومعقول بالعدالة والنزعة الانسانية . ان هذه الخصال الايجابية ضرورية لكي يتمكن الانسان من كبح جماح عواطفه وانفعالاته التي تصور الى سوء استغلال خطير للحرية . ان ممارسة الحرية يجب ألا تكون على نحو يؤدي الى الحاق الجور بالآخرين . « فمثل هذا الاستخدام للحرية ممنوع طالما انه يتجاوز العقد الاجتماعي » (٢٨) . ان الناس باتحادهم يخضعون افعالهم للمجتمع . انهم يتعهدون بألا يمارسوا استقلالا غير محدود ، ذلك لان هذه الممارسة تمثل انتهاكا للروابط الوحدوية القائمة بينهم . ان البشر اذ يضحون بمثل هذا الاستقلال الضار فان كل فرد منهم لا يتخلى عن حقه في ان يفعل ما يشاء طالما انه لا يجلب الضرر للآخرين .

ان ممارسة الحرية على نحو اناني لا تجعل الآخرين تعساء فحسب ، بل تجعل الممارس نفسه شقيا ايضا . فمثل هذه الممارسة انتهاك لكينونة الانسان الاجتماعية . ومن هنا فواجب الانسان ككائن اجتماعي أن يسعى الى بلوغ السعادة بوسائل لا تؤدي الى الحاق الاذى بالكائنات الاجتماعية الاخرى وبالتالي لا تتحقق سعادته على حساب شقاء الغير . وتأسيسا على ذلك فان الحرية هي « امكانية فعل كل ما تسمح به طبيعة الانسان الذي يعيش في المجتمع من اجل سعادته » (٢٩) .

ان الحرية التي تدفعنا الى الاتيان بأفعال مناقضة لقوانين الطبيعة والعقل وبالتالي معادية لاهداف المجتمع ـ هذه الحرية ما هي الا جنون. فالمواطنون ملزمون وضع حد لمثل هذه الحرية القائمة على أساس من فقدان العقل ومعاقبة كل من يمارسها لان كبح جماحها يحقق مصلحة جميع البشر . وبناء على ما تقدم فان « خير المجتمع بأسره يجب ان يكون مقياس حرية أفراد المجتمع » (٣٠) .

وينبغي الاشارة هنا الى ان هولباخ لا يكتفي بتقييد حرية الفرد بسعادة الغير بل يتجاوز ذلك ليمنح المجتمع الحق في تجريد الفرد من حريته اذا أساء استغلالها على نحو يمنع ويعيق سعادة الآخرين . « ان في وسع المجتمع ان يجرد المواطن من حريته فقط في تلك الحالة التي

---

(١٤) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
(١٥) نفس المرجع ، ص ٣٢٧ .
(١٦) ب. سبينوزا : المؤلفات المختارة ، المجلد الاول ، موسكو ١٩٥٧ ، ص ٥٧٦ .
(١٧) هولباخ ، المجلد الثاني ، ص ٣٢٧ .
(١٨) المصدر السابق ، ص ٣٤٣ .
(١٩) المصدر السابق ، ص ٣٤٣ .
(٢٠) نفس المصدر ، ص ٥٣٣ .
(٢١) المرجع ذاته ، ص ٣٤٣ .
(٢٢) نفس المرجع ، ص ٣٤٢ .
(٢٣) المرجع السابق ، ص ٣٩ .
(٢٤) المرجع المذكور آنفا ، ص ٣٤٥ .
(٢٥) نفس المرجع ، ص ٣٨ .
(٢٦) المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(٢٧) نفس المرجع ، ص ١١٨ .
(٢٨) المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .
(٢٩) نفس المرجع ، ص ٣٣٩ .
(٣٠) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

تلحق الاذى بالناس الآخرين » (٣١) . وفي موضع آخر يؤكد « ان كل انسان حر . بيد أن المجتمع يتمتع بحق تجريده من الحرية » (٣٢) . لكن هذا الحق ليس مطلقا وغير مشروط . فقد قيد هولباخ الحرية بالعقد الاجتماعي الذي حدده بانه « مجموعة واجبات المجتمع وأعضائه المتبادلة » (٣٣) . ويكمن مضمون العقد الاجتماعي في ان الفرد اذا اخذ على عاتقه اداء واجبات معينة ازاء المجتمع فان الاخير كذلك ملزم باداء واجباته نحو الفرد . « ان كل مواطن يعقد عقدا مع المجتمع » (٣٤) . ومن الجلي ان العقد يحدد المهام المنوطة بالمجتمع والواجبات الملقاة على عاتق الفرد نحو مجتمعه . فالفرد يطلب من المجتمع ان يساعده كي يقوم هو باسداء المساعدة للمجتمع بالقدر الذي تسمح به قواه وقدراته كما انه يتوقع من المجتمع ان يعمل من اجل سعادته كي يهتم هو بسعادة المجتمع . زد على ذلك انه يطلب من المجتمع ان يشاركه في نكباته ومصائبه كي يسهم هو بالتخفيف عما يلحق المجتمع من مآسي وبلاوي . ان الخيرات التي يقدمها لك المجتمع تغدو تعويضا عن التضحيات التي تقدم عليها . وبناء على ذلك « فان الحب والاحترام والخدمات من قبل جميع اعضاء المجتمع تصبح تسديدا لنشاطك النافع ومكافاة على عملك » (٣٥) .

وهنا لا بد من بروز التساؤل الآتي : هل يعقد هذا العقد مرة والى الابد ام انه قابل للتعديل ؟ يرى هولباخ ان العقد يجب ان يجدد على نحو دائم ومستمر . فالفرد يجري حسابات دائمة للخسائر والارباح التي تحصل من جراء ارتباطه بالمجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه . فهو يقيم باستمرار الضرر والفائدة ويعقد مقارنة بينهما . « فاذا كانت الفائدة تفوق الضرر ، فان الشخص العاقل راض بمصيره » (٣٦) . اما اذا كانت النتيجة عكسية بحيث « ان الضرر يفوق الفائدة وتعوقه خيرات تافهة فقط » (٣٧) فان « المجتمع يفقد الحقوق على المواطن » (٣٨) ومن جراء ذلك يضطر الفرد الى الابتعاد عن المجتمع وممارسة الانعزال ، ذلك لان الانعزال ـ في نظر هولباخ ـ هو الوسيلة المخلصة غريزيا . انه يقتنع ان المجتمع مذنب في النكبات التي تصيبه او يفقد الامل في التخلص منها . « انه يملك حق هجر المجتمع اي الانفصال عنه . فالعقل يسمح له بان يتخلى عن المجتمع الذي يلحق الاذى بسعادته » (٣٩) . واذا كان من حق الفرد ان يتبرأ من المجتمع في حال تنكره لسعادته فان من حق المجتمع الذي يؤدي واجباته نحو اعضائه ان يرغمهم على القيام بواجباتهم نحو مجتمعهم وان يحرمهم من الفوائد والامتيازات التي لا غنى عن الحصول عليها لو انهم نفذوا شروط العقد .

مما تقدم يتضح أن هولباخ نظر الى الحرية بمنظار اجتماعي ديالكتيكي . فقد أخذ بعين الاعتبار مصلحة الفرد وفائدة المجتمع في الآن نفسه . انه لم يصهر مصلحة العضو في بوتقة المجتمع كما انه لم ينظر الى الفرد كانه مستقل عن المجتمع . لقد حاول ان يجمع مصلحة الفرد وفائدة المجتمع على نحو لا يضر بأحدهما على حساب الآخر . فالعلاقة بينهما تعاقدية . ان غاية المجتمع تكمن في تنمية شخصية الفرد على نحو اكمل . ان للمجتمع هدفا واحدا فقط هو منح الناس امكانية استغلال هبات الطبيعة على نحو أتم واكتمال قدراتهم الفيزيائية والروحية » (٤٠) . وانطلاقا من ذلك فان العلاقات بين المجتمع من جهة وأعضائه من جهة اخرى تحتم واجبات متبادلة تقع على عاتق الجميع بحيث انها تربط الناس ببعضهم البعض وتوحدهم في مجتمع « اذا كان الاجزاء ملزمين بشيء ما (أمام) الكل ، فان الكل ملزم بشيء ما نحو اجزائه » (٤١) . ان واجب المجتمع هو تحقيق الرفاهية لافراده وان يتمتع الاخيرون بجميع الحقوق التي لا تضر بمصلحة المجتمع وان يضمن لهم الامن ، ذلك لان غيابه يعني ان الخيرات لا قيمة لها ولا فائدة من ورائها . « ان المجتمع ملزم بضمان رخاء المواطن واسداء المساعدة له في التمتع بكل ما له حق فيه بذاك القدر الذي ينسجم مع المصالح الاجتماعية وأخيرا ضمان الامن له » (٤٢) .

وهكذا نرى ان المجتمع يجلب الفوائد لاعضائه ، فلو ان العضو لم يربح شيئا من معيشته مع الآخرين لما أقدم على العيش في المجتمع وبالتالي تقام برفضه والابتعاد عنه . « فالمجتمع يمنح الانسان القوى ويسدي له المساعدة ويسبب المتع وأخيرا يضمن الامن الذي يحرم منه لو كان وحيدا » (٤٣) . ان اقتناع الانسان واحساسه بالامتيازات التي يحصل عليها من جراء عيشه اجتماعيا هو الذي يرغمه على التبعية للاخرين الذين لا غنى عنهم . فهو يتخلى الى حد ما عن الاستقلال الكامل ، عن ممارسة الحرية على نحو مطلق بهدف الحصول على خيرات أعظم من تلك التي تحققها له الممارسة التامة للحرية . انه يوافق على ان يصبح مفيدا للاخرين فقط من اجل مصلحة اكبر واشمل . « ان حب الانسان لاعضاء المجتمع الاخرين يعتبر في حقيقة الامر حبا لنفسه » (٤٤) .

مما سبق نلحظ ان العلاقة بين الفرد من جهة والمجتمع من جهة اخرى ذات طابع تبادلي ، فالانسان يرى في الآخرين مساهمين في تحقيق سعادته . ولكن هذا الاسهام يحد من حريته ويقيد استقلاله . وبناء على ذلك فان المجتمع الذي يخضع افراده لقادته ملزم بأن يضمن لجميع مواطنيه التمتع باستغلال قدراته الطبيعية . اما اذا جرد المجتمع (قادته) مواطنيه من هذه الامكانية بحيث ارغمهم على تقديم تضحيات لا فائدة من ورائها لا بل تسبب الالام ووضع العراقيل في طريق عملهم فان « الانسان يكف عن ان يرى في الاتحاد أي امتيازات . وهو اما ان يهجر المجتمع واما ان يبقى فيه دون ان يشعر بالتعلق السابق به » (٤٥) .

ان الفرد لا يمكن ان يتمسك بالمجتمع الذي لا يعمل من اجل رفاهيته والمحافظة على ذاته وتأمين خيراته . « ان الانسان غير قادر على ان يحب المجتمع اذا لم يخلق الظروف من اجل سعادته . فاذا حرم المجتمع الانسان من كل الخيرات التي سعيه اليها مشروط بطبيعته او تخلى عما هو ضروري لحفظ ذاته فانه (أي الانسان) يتشبع بالكراهية نحوه ، يهجره او حتى يلحق الاذى به » (٤٦) .

ومن الجدير بالملاحظة ان هولباخ لم يكتف بكل القيود التي وضعها على حرية الانسان بل اضاف اليها قيدا آخر الا وهو القوانين . « ان الحرية تأتي بالضرر عندما تفضي الى التخلي عن الخضوع للقوانين المسنونة (على أساس) من العدل والعقل والمجتمع » (٤٧) . فقط القوانين القائمة على أساس من الحكمة والعقل قادرة على ان تحمي المجتمع من تطاولات المستبدين والعواقب الوخيمة للنزوات . ان سيادة

(٣١) المرجع السابق ، ص ١١٩ .
(٣٢) نفس المصدر ، ص ٣٨ .
(٣٣) المرجع السابق ، ص ٣١ .
(٣٤) نفس المصدر ، ص ٩٥ .
(٣٥) المصدر السابق ، ص ٩٦ .
(٣٦) نفس المرجع ، نفس الصفحة .
(٣٧) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(٣٨) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(٣٩) المصدر المذكور آنفا ، ص ٣١ .
(٤٠) نفس المرجع ، ص ٩١ .
(٤١) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(٤٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٤٣) المصدر السابق ، ص ٩٢ .
(٤٤) نفس المرجع ، ص ٩٣ .
(٤٥) المرجع السابق ، ص ٩٤ .
(٤٦) نفس المصدر ، الصفحة ذاتها .
(٤٧) المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

القوانين اكبر ضمان لممارسة الناس حرياتهم ، ومتى فقدت القوانين مفعولها ، فقد غابت الحرية واستحال الانسان الى عبد . « فالانسان حر في كل مكان يسود فيه القانون . والانسان عبد في أي مكان يسيطر فيه شخص على القانون » (٤٨) . اضف الى ذلك ان الحرية بحاجة الى رادع . فهي لن تستمر لفترة طويلة الا اذا كانت مدعمة من قبل قوة ترغم الجميع حكاما ومحكومين على الانصياع للقوانين . كما انها تنعدم في حال عدم تقيد جميع افراد المجتمع دون استثناء بالقوانين التي تضع حدودا معينه لحرية المواطنين والحكام في الآن نفسه .

وما يؤكد عليه هولباخ هو « ان الشعب حر فقط حيث يطبق القانون بمعناه الدقيق والمباشر » (٤٩) وخلاف ذلك فهو يستخدم لاضطهاد الضعفاء ويغدو أداة لممارسة التعسف وبالتالي يقضي على الحرية والامن . ان القوانين لا تسن من اجل هذه الطبقة او تلك ، ولا لصالح المحكوم او الحاكم فقط . فهي « لا تخلق ابدا من اجل ان تخدم مصالح فئات ، افراد معينين او اولئك الذين يسيرون الدولة » (٥٠) .

يتضح مما سبق ان نظرة هولباخ الى القوانين تحمل طابعا انسانيا مجردا . ويكاد التاريخ يخذلنا في الكشف عن مثل هذه القوانين وذلك لانها تعبر عن مصالح فئات وطبقات معينة . صحيح ان بعض القوانين في هذا البلد او ذاك وفي هذه الحقبة الزمنية او تلك يصطبغ بصبغة انسانية مجردة الا انها تفقد هذا الطابع عند ممارستها وتطبيقها .

لقد اراد هولباخ ان تعبر القوانين عن ارادة الجميع « القانون هو حاصل ارادات اعضاء المجتمع المتحدين من اجل تحديد سلوك المواطنين او توجيه اعمالهم نحو بلوغ أهداف الاتحاد » (٥١) . وانطلاقا من ذلك يفهم توكيده على ان القوانين يجب الا تخدم هذا او ذاك فقط من اعضاء المجتمع . فالقوانين لا تعتبر عادلة الا اذا كان هدفها الدائم المصالح العامة للمواطنين اي « ان تضمن لاكبر عدد ممكن من اعضاء المجتمع تلك الافضليات التي اتحدوا من أجلها . وهذه الافضليات هي : الحركة ، الملكية ،الامن » (٥٢) . ومعنى ذلك ان هولباخ قيّد القوانين بالعدالة . فالانسان الذي يتجاوز الحدود العادلة التي تسمح بها القوانين انما يجعل استخدامه للحرية يستحيل الى ما هو مناف للعدل وبالتالي يؤدي الى الحاق الجور بالآخرين . وهنا لا بد من طرح هذا التساؤل : ما هي القوانين العادلة في نظر هولباخ ؟ قبل الاجابة عن مثل هذا التساؤل لا بد من الكشف عن القوانين الجائرة . وهنا يرى هولباخ ان هذه القوانين مجرد املاء للنزوات والعنف والمصالح الشخصية . انها تجرد المواطنين من ابسط الحقوق المعقولة بحيث « تفقد مصلحة المشرع هي المعيار الاول للحرية » (٥٣) . بيد ان القوانين القائمة على اساس من العدل تجعل المواطنين احرارا بالمعنى التام للكلمة . انها تمنح « المواطنين امكانية التمتع بالحرية الكاملة بالقدر الذي تستطيع ان تسمح به الطبيعة والعقل وفقا لحاجات وظروف المجتمع » (٥٤) .

نستخلص مما تقدم ان القوانين العادلة هي تلك التي تأخذ بعين الاعتبار مصلحة المواطنين وتبتعد عن المصالح الشخصية الضيقة وعلى وجه الخصوص مصلحة الحاكم . ان القوانين العادلة تشكل التربة الخصبة لممارسة الحرية الحقيقية . فانصياعنا لها ضمان من اجل ان نكون احرارا . « ان نخضع للقوانين العادله فقط ـ هذا يعني ان نمارس حرية تامة جدا . فقط مثل هذه الحرية يتمنى المواطن » (٥٥) .

ان الحرية الحقيقية هي التي بنصاع ممارسها الى القوانين التي تهدف مصلحة الآخرين . « أن تكون حرا ـ يعني ان تطبق فقط القوانين الموجهة الى تأمين خير المجتمع والموافق عليها من قبله » (٥٦) . ومعنى ذلك ان نفض الطرف عن الوضع الاقتصادي والمركز الاجتماعي لاي عضو من اعضاء المجتمع . فالقضاء على التمايزات القائمة على اساس من المال أو المكانة الاجتماعية هو العامل الحاسم في سيادة العدل . « فالدولة في الواقع ليست حرة بتاتا حيث يمكن بلوغ العدل بالاعتماد فقط على الثروة ، الوضع الاجتماعي والحماية . ان العدل يجب ان يضمن بواسطة الحق وليس بارادة هؤلاء او اولئك من البشر » (٥٧) .

ان الحرية الحقة تنعدم اذا ما تمتع بعض المواطنين بامتيازات أو أفضليات غير عادلة وذلك لان الامتيازات لا يتم الحصول عليها الا على حساب أغلبية أعضاء المجتمع. وبهذا الصدد يقول هولباخ : « ان الامتياز الواقعي للانسان الحر يكمن في ان تكون حقوقه مكفولة من قبل زملائه المواطنين » (٥٨) .

جملة القول ان هولباخ ينطلق من المصلحة الاجتماعية في فهمه للحرية ويشدد كثيرا على المصلحة العامة . صحيح ان المحافظة على الذات والسعي نحو تحقيق السعادة طبيعي وضروري بالنسبة للانسان الا ان بلوغ ذلك يجب ألا يتم على اساس الحاق الاذى بالمجتمع .

ومن الامور الجديرة بالملاحظة ان هولباخ يرى ان الحرية لا تعني ان يتساوى الجميع . ويبرر رأيه بتشبيه المجتمع بالطبيعة . « ان المجتمع مثل الطبيعة يقيم لامساواة شرعية وضرورية بين اعضائه » (٥٩) .

ان الطبيعة ـ أم الانسان ـ رفضت مساواته بالغير . فقد خلقت بين الناس الاختلافات التي نلحظ لها مثيلا في أوساط الكائنات الاخرى « فانبثر يتفاوتون لدرجة عظيمة عن بعضهم البعض بقواهم الفيزيائية والروحية ، وأهوائهم وافكارهم وتصوراتهم عن الرفاهية والطرق التي يختارونها من اجل بلوغ هذه الرفاهية » (٦٠) . ولتوكيد هذه الموضوعة يردف قائلا : « ان كل مواطن من مواطني الامة الحرة يتمتع بالافضليات التي تقدمها له قدراته ، العمل ، المهارة وفي بعض الاحايين الصدفة البسيطة » (٦١) . وهنا يجب ان نقرر ان هولباخ يشدد على الفوارق الفردية بين البشر ويرى انها اساس في انعدام المساواة . وما يلزم الاشارة اليه هو ان هولباخ انطلق من الطبيعة في معالجة عدم المساواة بين البشر . لقد غاب عن ذهنه ان لكل مجتمع فلسفته الخاصة به . وهذه الفلسفة التي يتبناها قادة المجتمع هي التي تقيم او ترفض المساواة بين الناس انطلاقا من نزعتها الانسانية او اللاانسانية . وبناء على ذلك ينبغي ألا نعالج ما هو اجتماعي بمنظار طبيعي أي لا اجتماعي . واكثر من ذلك ان هولباخ لا يرى غضاضة في عدم المساواة ولا يتصور انها تعود بالضرر على اعضاء المجتمع . « فعدم المساواة ... لا يضر بالمجتمع وانما يسهم في حفظ ودعم

---

(٤٨) نفس المرجع ، ص ٣٤٥ .
(٤٩) المرجع نفسه ، ص ٣٤٥ .
(٥٠) المرجع نفسه ، ص ٣٤٩ .
(٥١) بول هنري هولباخ ، المؤلفات المختارة في مجلدين ، المجلد الاول ، موسكو ، ١٩٦٣ ، ص ١٧٢ .
(٥٢) المرجع السابق ، ص ١٧٣ .
(٥٣) هولباخ ، المجلد الثاني ، ص ٣٣٩ .
(٥٤) نفس المرجع ، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .
(٥٥) المرجع نفسه ، ص ٣٤٢ .
(٥٦) المصدر ذاته ، ص ٥٣٣ .
(٥٧) نفس المصدر ، ص ٣٤٩ .
(٥٨) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(٥٩) المرجع نفسه ، ص ١٢٤ .
(٦٠) المرجع السابق ، ص ١٠٠ .
(٦١) نفس المرجع ، ص ٣٤٩ .

وجوده » (٦٢) . فلو كان الناس متساوين في القوى الفيزيائية والمواهب، في الاساليب والاعضاء ، لادى ذلك ـ في نظره ـ الى رغبة الجميع في الشيء نفسه وافضى الى ان تعم الكل نفس الاهواء والنزوات . فالتوافق في نمط التفكير يقود عمليا الى قيام البشر « بتصفية بعضهم البعض لرؤية سعادتهم الخاصة في نفس الموضوعات » (٦٣) .

بيد ان عدم المساواة والاختلافات القائمة بين البشر تعتبر علة ما يسعى اليه كل فرد على نحو خاص به الى ما هو مفيد لسعادته الشخصية . ونتيجة ذلك يدب النشاط في كل فرد ويقوم بالسعي الى اخفاء عدم اكتماله او ضعفه او تأخره . زد على ذلك ان المرء لا يكتفي بمثل هذا السعي وإنما يبذل كل ما في وسعه كي يبلغ الامتيازات والنجاحات التي وصل اليها غيره من البشر .

وما هو جدير بالملاحظة ان هولباخ رفض رفضا باتا ان تستغل الفوارق بين البشر على نحو يؤدي الى اخضاع الذين يتمتعون بامتيازات لاولئك الذين جردوا منها . فهذه الفوارق يجب ألا تمنح صاحبها حق استغلال المجرد منها . فعدم المساواة يجب ان لا تكون سببا لحدوث النكبات والمصائب . وبكلمات اخرى يجب ألا تؤدي عدم المساواة الى الحاق الاذى بافراد المجتمع . ان عدم المساواة « يخدم اساسا واقعيا لرفاهيتهم » (٦٤) . فانعدام المساواة بين البشر يحثهم ويرغمهم على ان يتوجه الواحد نحو الاخر ويساعد الانسان اخاه الانسان . « فلو ان جميع البشر كانوا متساوين في العلاقات الروحية والفيزيائية لما احتاج الواحد للاخر » (٦٥) لا بل لما اصبح الانسان كائنا اجتماعيا . ان تباين القدرات ، الذي يؤدي بدوره الى عدم المساواة ، هو الذي يجعل البشر بحاجة الى بعضهم البعض . ولولا ذلك لاضطر الناس الى ان يعيشوا منعزلين منفصلين . انه لواضح ان عدم المساواة وانعدام امكانية المحافظة على الوجود والبقاء واستحالة بلوغ الرفاهية في اوضاع تتسم بالعزلة والاستقلال التام ـ كل ذلك ارغم البشر على الاتحاد والتعاون . « ونتيجة للتباين بين الناس وعدم مساواتهم فقد اضطر الضعيف ان يقف تحت حماية القوي . هذه الظروف تجبر القوي على الاستعانة بمعارف ومواهب ومهارة الضعيف عندما يعتبرها ذات فائدة له » (٦٦) . ان تركيز هولباخ على الاختلافات القائمة بين البشر أدى به الى انكار ان افراد المجتمع البشري في المرحلة الاولى كانوا متساوين اجتماعيا واقتصاديا . « فالبشر لم يكونوا متساوين على الاطلاق » (٦٧) . « ان الناس كانوا منذ البداية غير متساوين من حيث صفاتهم الشخصية ومقادير الملكية والممتلكات على حد سواء » (٦٨) وبما ان انعدام المساواة ظاهرة طبيعية وأبدية فان السعي الى تحقيق المساواة في الملكية موضوع غير وارد . « فعدم المساواة الطبيعية للناس تجعل المساواة في الممتلكات غير ممكنة » (٦٩) . هذا التوكيد على عدم المساواة ضروري لهولباخ من اجل الوقوف ضد الملكية العامة واعتبار الملكية الخاصة ظاهرة تتفق مع اختلاف وتباين الافراد . فهو يرى « ان لا جدوى من جميع المحاولات لجعل ملكية الكائنات غير المتساوية من حيث القوة والعقل ، الهمة ونشاط الطبيعة عامة » (٧٠) .

والخلاصة ان المساواة الحقيقية الوحيدة التي يطمح اليها كل فرد هي مساواة الجميع امام القانون وكان القانون هو الكفيل بتحقيق التوازن والانسجام . وهنا نلحظ ان المساواة التي نادى بها هولباخ هي مساواة شكلية قانونية بعيدة كل البعد عن المساواة المضمونية الاصلية . والذي لا شك فيه ان الحرية الحقيقية وثيقة الصلة بالمساواة الاخيرة .

والى جانب اهتمام هولباخ بعالم الحرية الخارجي هناك تركيز على عالم الحرية الداخلي . فهو يرى ان اكتمال حرية الانسان مرتبط ليس فقط بتحريره من كل ما يلحق الجور بشخصيته وملكيته فحسب، بل وتخليص عقله من اغلال الطغيان بحيث يستطيع بحرية « ان يتبع المعتقدات التي يعتبرها حقة ، مفيدة ، وضرورية لرفاهيته » (٧١) . ويؤكد على هذه الفكرة في مكان اخر بقوله : « ان الانسان يشعر بالميل فقط نحو تلك المعتقدات التي يرى انها منسجمة مع رفاهيته» (٧٢) وتأسيسا على ذلك فانه لموقف جائر ذاك الذي يحرم المواطنين حقهم في التعبير بحرية عن آرائهم ذات الاهمية بالنسبة لرفاهيتهم قولا او كتابة . ولا يفوت هولباخ أن يحذر من استخدام القوة والعنف في منع الناس من ممارسة حرية الضمير ، ذلك لان العنف يفضي بهم الى الشقاء والتعاسة . ان للقوة عواقب وخيمة عندما تحاول السلطة الحاكمة ان تحقق وحدة في الآراء بين الناس . والجدير بالذكر ان السياسة الحكيمة تكمن ـ في نظر هولباخ ـ في السماح بتعايش جميع الاديان والمعتقدات التي يعتنقها المواطنون . كما انها تتجسد في عدم السماح لاي دين او معتقد بأن يضيق الخناق على غيره من الاديان او المعتقدات . فموقف السياسة الحكيمة يجب ان يكون واحدا من جميع الاديان والمعتقدات نظرا لان وقوفها الى جانب واحد منها يعني فقدان دور الحكم ، القاضي بينها .

ان الشغل الشاغل والمهمة الرئيسية للمشرع تكمن في الاهتمام بسلوك البشر من حيث هو فاضل أو رذيل ، مفيد او ضار ، اما المعتقدات ذاتها فيلزم ألا يعيرها المشرع اهمية . ان العواقب والنتائج التي تترتب على السلوك الموجه من قبل هذه او تلك من المعتقدات هي المحك . « يجب على المشرع أن يهتم بتصرفات الناس فقط . فاذا كانت تجلب الفائدة وتحقق الفضائل ، فان الناس يجب ان يكونوا احرارا في التفكير كما يحلو لهم » (٧٣) . وهنا يؤكد هولباخ على ضرورة ان تخدم كل المعتقدات رفاهية الجميع . ومعنى ذلك انه يركز في المقام الاول على الدلالة الوظيفية للمعتقدات . فهو لا يعيرها اهمية الا بالقدر الذي تسمح به بتحقيق رفاهية وسعادة افراد المجتمع . انه ينطلق من الزاوية الاجتماعية لا المعرفية في معالجته للمعتقدات . ومصداقا لهذه الفكرة يقول : « تكمن مهمة اي حكم في ارغام جميع الطوائف الدينية على الاسهام في سعادة المجتمع » (٧٤) .

ان حرية التفكير في نظر هولباخ ـ على جانب كبير من الاهمية بحيث ان فقدانها افضل من خضوع الانسان الى أهواء الاخرين من البشر . وبهذا الصدد يقول : « انه لا فضل كثيرا بالنسبة للانسان ان يكون محروما بطبيعته من القدرة على التفكير على ان يلقى نفسه مضطرا لتكييف احكامه مع نزوات الناس الآخرين » (٧٥) .

وبالاضافة الى ما تقدم يرى هولباخ ان الحرية تحقق الفائدة للسلطة . « ان حرية التفكير والتعبير عن الاراء الخاصة بصورة مكتوبة وشفهية يعتبر ركيزة لاية حكومة لائقة » (٧٦) . والحق ان

---

(٦٢) المرجع ذاته ، ص ١٠٠ .
(٦٣) نفس المرجع ، ص ١٠١ .
(٦٤) المرجع نفسه ، ص ١٠٣ .
(٦٥) هولباخ ، المجلد الاول ، ص ١٥٥ .
(٦٦) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٦٧) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .
(٦٨) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .
(٦٩) نفس المرجع ، ص ١٢٠ .
(٧٠) المرجع ذاته ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .
(٧١) المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .
(٧٢) نفس المرجع ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .
(٧٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٦ .
(٧٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(٧٥) نفس المرجع ، نفس الصفحة .
(٧٦) المرجع ذاته ، الصفحة نفسها .

ممارسة الحرية لا تشكل خطرا الا على اولئك الذين يكمن هدفهم في الحاق الجور بالآخرين والابتعاد عن العقل . ان من له مصلحة في « القضاء على العدالة والعقل » هو الذي يخشى أن يمارس البشر حرياتهم . وبكلمات اخرى اذا كنا ننطلق من العقل ونسعى الى سيادة العدل فان ممارسة الحرية ضرورية ولا غنى عنها .

ان دفاع هولباخ عن الحرية له ما يبرره وذلك لان سيادة الحرية ذات فوائد جمة . فهي تحقق مكاسب عديدة لا يمكن الحصول عليها في حال انعدامها . انها تحمي المواطنين الضعفاء من ظلم واستبداد الاقوياء . وفي الوقت نفسه تضمن عظمة النبلاء وقوي عرش الحاكم وتوحد رغبات وقوى جميع الرعايا واخيرا تمنح الدولة العظمة والطاقة الضروريتين لها من اجل صد تطاولات اعدائها » (٧٧) . وعندما تسود الحرية ويصبح الشعب حرا فانه يكون بمقدوره ان يسهم في الازدهار الاقتصادي نظرا لانه واثق من الامن وقادر على التحرك والتنقل ، وشجاع وحيوي في العمل .

ان الفرد الحر جزء من الشعب الحر . ومعنى هذا ان سيادة الحرية تؤدي الى تمتع كل فرد بالحرية ، الامر الذي يفضي الى تعلق بوطنه على اساس الحب المشروع لذاته والقائم على قاعدة عقلانية . « فهو يعي ان له وطنا لان الوطن حيث يتمتع المواطنون بالرفاهية » (٧٨)

واذا ما تعرض الوطن لتطاولات الاعداء فانه سرعان ما يهب للدفاع عنه « فهو يقدم للوطن الدعم في جميع جهوده » (٧٩) . انه يدرك ان اعداء وطنه هم اعداؤه وان دفاعه عن الدولة هو دفاع عن النفس . ومرد ذلك ان « حبه لوطنه لا يمثل دائما الا حبه لذاته » (٨٠) .

ان انعدام الحرية يفضي بالضرورة الى غياب الوطن وذلك لان الوطن والحرية صنوان لا يفترقان . فاذا اردنا ان ينتمي الفرد الى وطنه ويهب للدفاع عنه امام تطاولات الاعداء فما علينا الا ان نمنحه الحرية الحقيقية .

يتضح مما تقدم ان هولباخ اولى الحرية اهمية كبيرة وعالجها في شتى علاقاتها وصورها المتشابكة ، الامر الذي يسمح لنا بالقول ان هولباخ قدم لنا صورة تتصف بالشمول . وكما ذكرت في مستهل البحث اعود لاكرر ان فهمه للحرية لم يفقد دلالته في عصرنا الراهن بالرغم من بعض الثغرات ونقاط الضعف ...

صحيح ان « مشكلة الحرية أبدية » ... الا ان معالجتها تختلف من فيلسوف الى آخر ومن حقبة زمنية الى اخرى . وهولباخ في تحليله للحرية لم يعتمد على من سبقوه وعاصروه من الفلاسفة فحسب ، بل اضاف وطور وأسهب .

الجامعة الاردنية ـ عمان

(٧٧) المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .
(٧٨) نفس المرجع ، ص ٣٥٢ .
(٧٩) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٨٠) نفس المرجع ، ص ٣٦٩ .

الآن في الاسواق

« مجلة الفكر المعاصر »

- الحضارة التكنولوجية : د. الياس فرح
- دور الشعر في نهضة العرب الحضارية : د . ميشال سليمان
- تطوير شخصية الانسان الاجتماعي : د . خالد السلام
- التجديد ومهمة الشاعر العربي الحديث : د . الشاعر خليل حاوي
- الفلسفة والحضارة : انطون مقدسي
- بناء الوجدان الثقافي القومي : الشاعر عبدالوهاب البياتي
- الحرية اولا ... : الشاعر سعدي يوسف
- نحو الجدلية الحضارية : مطاع صفدي
- « علم المستقبل » والمستقبلية الحضارية : سمير كرم
- معطيات الثورة العربية : د : جليل كمال الدين
- ما هي الماركسية الارثوذكسية : جيورجي لوكاتش
- الشكل الجديد للاستعمار : سالم شريف
- النقد والحرية : خلدون الشمعه
- خماسية الامتاع والمؤانسة (شعر) : الياس لحود
- لا غيمة للاشجار ولا اجنحة فوق الجبل (قصة) : زكريا تامر
- الوصية (قصة) : محمد سعدون السباهي
- الحقائق القديمة ما تزال صالحة للنشر (قصة) : يحي الطاهر عبدالله
- بابلو نيرودا .. مع شعره : حمادي عبدالله
- الوجد المادي : ج . لوكليزيو
- الطريق من الملحمة الى التراجيديا : حسن عطية
- دفاتر الفكر المعاصر في الادب والفن والعلوم .
- نتاجات بأقلام حسين محمد بدري وجودت حسن وعلي الخليلي واسماعيل الخطاب .
- ندوات ورسائل الوطن العربي ومطالعات نقدية .
- ملف العدد : استقصاءات نظرية في طبقية الفن بقلم : عزيز السيد جاسم